السكينة بعد الاضطراب:
المراجعات والآفاق

عبد الرحمٰن السالمي

عانى المسلمون خلال أكثر من عقدين من اضطرابٍ عميقٍ في دينهم ومجتمعاتهم، وأفضى ذلك إلى تحوُّل الإسلام إلى مشكلةٍ عالمية. إذ حصلت انشقاقاتٌ قاد إليها تطرّف عنيف، شمل جزءًا من ديارهم، وانتشر في العالم، مما دفع الدول الكبرى للتدخل لإخماد الاضطراب من جهة، ولاستعادة الاستقرار في بلدان المشرق العربي، وجنوب الصحراء، ونواحٍ من شرق آسيا. ولا شكَّ بأنّ السياسات الدولية والإقليمية أسهمت بهذا القدر أو ذاك في هذا الاضطرب، لكنّ الثوران العنيف باسم الدين لا يمكن إنكارُه، وبخاصةٍ أنّ عشرات الأُلوف من الشبان اندفعوا باتجاهه، فأوقعوا بأنفسهم وببلدانهم وبصورة الإسلام في العالم أضراراً بالغة.

ولذا، فنحن اليومَ أمام ظواهر بالغة الخطورة، تتطلّب التصدّي والمكافحة، وتتطلّب المراجعة لاستعادة السكينة في الدين، في مُوازاة جهود الدول لاستعادة الاستقرار في المجتمعات، وحماية الناس من أوزار التطرّف والعنف.

والتساؤل الذي يطرحه الجميع: ما الأسباب العميقة لهذه الظاهرة؟ إنّ أسبابها العميقة ظواهر الحداثة والعولمة، والتي نالت من استقرار وسكينة كل الأديان، ربما باستثناء الكاثوليكية التي لم يحدُثْ فيها ثورانٌ ملحوظ. فقد تصدّعت تقاليد وأعراف السلام الديني والاجتماعي، وركبت فئاتٌ شابةٌ كانت تُعاني من التهميش قطار الفعالية والمشاركة، وتصاعدت حساسياتٌ إثنيةٌ وقوميةٌ ودينيةٌ لم تكن معروفةً أو معهودةً من قبل. فالبوذية لم تعرف من قبل عنفاً بالقدْر الذي يُمارسُ على أقلية الروهينغا في ميانمار باسمها. كما أنّ البروتستانتيات والإنجيليات الجديدة والمتجددة اكتسحت مساحاتٍ شاسعةً دنت كثيراً من أن تكونَ عنيفة، وهو الأمر نفسُه الذي عرفته اليهودية، وعرفه الإسلام، وما قصّرت الهندوسيةُ في بلوغه، حتى بدا في سياسات الدولة، وفي العلاقات بين الناس في البلاد الهندية الشاسعة.

وإذا عُدْنا للإسلام؛ فقد تصاعدت بين فئاتٍ من شبانه وكهوله، أحاسيس بالخوف على الإسلام. وقد لا يجدُ العقلاء أنّ لذلك أسباباً ظاهرةً أو معقولة. لكنّ الوعي لا يكونُ دائماً انعكاساً للواقع، وإنْ أثّر كُلٌّ منهما في الآخر. وإنما ترافقت تلك الأحاسيسُ بالخوف والتوجُّس بتغييرٍ في مفاهيم دينية رئيسية، مثل الدين والشريعة والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فسيطر من خلال هذا التغيير المتنامي فكر وذهنية الهوية والخصوصية، والتصرف والسير في سُبُل للحفاظ عليهما. واقترن ذلك بمقولة أنّ الإسلام دينٌ ودولةٌ، وأنّ على دول المسلمين أن تحمي الدين للتلازُمِ بين السلطة السياسية وتطبيق الشريعة. وكما سبق القول، فإنّ هذا الوعي يصعُبُ تحليلُهُ بوضوح. فليس صحيحاً أنّ الشريعة وهي الدينُ ذاتُه غادرت مجتمعاتنا ودُوَلَنا. كما أنه ليس صحيحاً أنّ مهمة الدولة تطبيق الشريعة، بل إنّ مهمتها هي حُسْنُ إدارة الشأن العام. لكنّ هذه المقولة دفعت شباناً كثيرين للتدخل من أجل حماية الدين المهدَّد والشريعة التي ينبغي تطبيقُها.

ماذا تستطيع المؤسسات الدينية أن تفعل، وماذا على المفكرين والمثقفين والإعلاميين أن يفعلوا؟ في سنوات الاضطراب العنيف، اندفعت مؤسساتُنا الدينية لمكافحة التطرف والإرهاب، بوسائل القوة الناعمة: مكافحة تحريف المفاهيم، ومكافحة استسهال العنف واستخدامه باسم الدين، وإعادة النظر في مناهج التعليم الديني، وعقد المؤتمرات ووُرش العمل للتشاور في ثلاثة أمور: مكافحة الثوران العنيف، ونشر الاعتدال، والتواصُل مع المؤسسات الدينية في الأديان الأُخرى لتصحيح النظرة إلى الإسلام، والإفادة من تجاربها مع التطرف وعلائقها بالدولة وسياساتها العامة. لقد ساد في هذه العملية مصطلحان: التأهُّل والتأهيل. فالتأهُّل يعني المعرفة بالوقائع الجديدة في زمن العولمة، وتأثيراتها في المجتمعات. وقد صارت هذه المعارفُ ضروريةً لأننا بالفعل فوجئنا بهذا الانقلاب في المفاهيم، وبهذا الإقبال على العنف واستسهاله. وقد كنا نعرفُ أنّ التقليد الديني المتمثل في المذاهب الفِقهية قد تصدَّع، وأنّ شبان الصحوة كرِهوهُ، وزعموا العودة المباشرة إلى الكتاب والسُّنَّة. ثم وجدْنا أنّ هؤلاء المتطرفين يعودون لاستخدام التقاليد المذهبية والفِقهية والسياسية بطرائق انتقائية، مُختارين المتروك والمُتجاوَزَ منها، وبتأويلاتٍ ما أنزل اللّٰه بها من سلطان. ولذا فإنّ شعار **التأهُّل** المقصودُ به الفهم المتعقّل لكل هذه المتغيرات، لكي نتوصّل بالتشخيص الصحيح والسليم إلى المعالجات المُجدية.

أما القطبُ الآخَرُ فهو **التأهيل**. إنّ بين أيدينا مؤسساتٍ ومعاهد وكليات، وخطاباً دينياً يقوده الأئمة والمدرِّسون، ومناهج في التأليف والتدريس والخطابة، تستخدم الموروث بكثافة، وتسعى للإصلاح وصُنْع الصورة الأُخرى من خلال المراجعة والتدريب والإرشاد على أُسُسٍ جديدة. فالتأهُل من خلال المعرفة، ومن خلال إقامة البُنى المرِنة يكشف عن آفاقٍ ممكنةٍ وجديدةٍ للعمل والتأثير. ثم إنّ التأهيل ليس ذا طرفٍ واحدٍ، بمعنى

أننا نعلِّم الآخرين أو ندرِّبهم؛ بل إننا نُقْبل على التشـارك، فنحن كما قال صلواتُ اللّٰه وسلامُهُ عليه: «**المسلمون جماعةٌ واحدةٌ، تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهُم وهم يدٌ على مَنْ سِواهُم**».

وهنـاك أمرٌ آخـر أو ثالث، وهـو أنّ التكليـف الشـرعي أو الدعوي لا يتضمـن النهي عن المنكر وحسْـب؛ بـل إنه يتضمن الأمـر بالمعروف أيضاً، أو كما يقول الأصوليون: درءُ المفاسـد، وجلْـب المصالح. فعندما تقول للفتى المسترشـد إنّ عليك أن تنتهي عن كذا، يكونُ عليك أن تُردفَ فوراً: والبديل المكسـوب والواعـد والفاتح للآفاق هو كـذا وكذا. والذي نراهُ بعد السنوات العِجاف، أنّ مستقبل الخطاب الإسلامي رهنٌ في نجاحه وفعاليته بالمنافذ التي يتيحها، وبالآفاق التي يفتحها للسـكينة في الدين، والسـكينة في المجتمع، واستكشـاف الأجواء التي تظهر للحكم الصالح والرشـيد. فالمجتمعات لا تحميهـا وتصونُ حقوقهـا وإنسـانيتَها إلّا دُوَل المشاركة، ودُوَل التنمية والمسـتقبل الواعد، التي تتيح سلاماً مع النفس ومع الآخَر بالداخل والخارج. إنّ السُـخْط والتبرؤ هو إعفاءٌ للسلطات من مسـؤولياتها، بينما يصبح الإقبـالُ والانفتاحُ تشـارُكاً وصناعةً مشـتركةً للحاضر والمسـتقبل. ومن أجل ذلـك كلِّه؛ فإنّ هنـاك أولويتين للخطاب الديني هما: اسـتعادةُ السـكينة في الدين، والإقبال على الدولة الوطنية الحامية والواعدة، باعتبار أنّ رُشْـدها وصلاحها المشهودان هما جزءٌ من تلك السكينة التي نسعى لاستعادتها.

لقد قلْنا من قبل إنّ هذه المهمة الجليلة والخطيرة تتناول إلى جانب الدولة فئـاتٍ ثلاثـاً بالدرجة الأولـى: أهل العلـم والديـن، والمثقفين والمفكّريـن، والإعلاميـين والناشـطين في وسـائل التواصُـل. وأياً يكن تقديرنا للموقف؛ فإنه لا يمكـن القولُ حتى الآن إنّ الشـراكة الضرورية والتعاوُن والتضامُنَ الوثيق، بين الفئات الثلاث قد صار واقعاً. فالمثقفون مُعْرِضون عن المؤسسات الدينية، والإعلاميون يعتبرون أنفسهم هم العصرُ

نفسُه، وليســوا بحاجةٍ إلى أحدٍ آخر. ومَثَلُ الســفينة ذات الطبقتين الذي ضربه لنا رسولُ اللّه وسلامُهُ عليه ليس ببعيدٍ ولا مجهول: مَثَلُ القائم على حدود اللّه والواقع فيها كمثل قومٍ اســتهجموا على ســفينةٍ فأصاب بعضُهم أعلاها، وبعضهم أســفلها، فكان الذين في أســفلها إذا اســتقوا من الماء مروا على مَنْ فوقهم، فقالوا لو أنّا خرقْنا في نصيبنــا خَرقاً ولم نؤْذِ مَنْ فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نَجَوا ونَجَوا جميعاً. إنّ ســفينة ديننا وأُمتنا ومجتمعاتنا وسُــلطاتنا تمرُّ في هذا البحر العاصف، وإنّ نجاحنا في اجتياز الصعاب، وعتوّ الأمواج، رهنٌ بالتعاون لكسر الانســدادات، ولفتح الآفاق على الســكينة المرجوّة، وعلى الدولة الميمونة في زمن النهضة المباركة.